



رسالة إلى دانة

بقلم: جواد بولس

الريح، وكيف صرنا اليوم نقف عند حدود الحسرة وفينا ذلك الحنين الهش إلى كل ما فات ولن يعود، وإلى مستقبل يعيش في حاضرنا بدون مستقبل.

نظرت إليها فغمرتني السعادة وحاولت أن أتعزى بترف الفلسفة فقلت لنفسي، من لا مستقبل له فله الحياة في الحاضر الذي لا ينتهي.

فتحت عينيها مثل البنفسج وبثأنيه. تبسمت كطفلة وأخبرتني بهدوء بأنها نجحت في الامتحان. تمالكت وخفت من سقوط حاجبي الحاجز. أمها، التي تحولت وهي تنتظر نتائج الامتحان، إلى لغم موقوت انفجرت بعد سماعها للخبر فملأت صرختها فضاء البيت حتى الفزع.

وقفت وألقت برأسها على كتفي فشعرت أنها تغلق دائرة بدايتها أنا قبل أربعين عاماً. غمرتني راحة سحرية. تلوت عليها بعضاً من تراتيل الآباء.

فأنا أعرف أنك، مثل أبناء جيلك، تنتمين إلى عصر مختلف عن عصري، وأعرف أنك قادرة على مواجهة هذا الزمن الرديء، لأنك قد نشأت بقناعة أن العلم سلاح لكن التثقف يحصنه ويمتته فنهلنا من هذا وعشقت ذلك،

وأعرف أنك تطبعت على حب الناس، كل الناس، لكنك خبرت أن الحب لوحده قد يسقط الجسد ويضيئه فالتبصر فضيلة والامسك مأثرة والتعلل كنز لا يفنى.

فكوني كما أنت قوية كابتسامته الحفيد الأولى وناصعة من غير أقتنعة لأن الحياة مجرد غفوة والخسائر الحقيقية تتحقق في اللحظات الرمادية.

حاربي من أجل ما تؤمنين به واطرقي دائماً فسحة للتصالح وفرصة للغد عساها يكون أضمن وأجمل.

فتشي عن العدل وحاولي أن تجديه في حقول القمح وفي راحة رغيف الخبز الساخن، ولا تياسي إذا وجدته مقتصباً في دهاليز وقاعات المحاكم.

تذكري كيف قتل الفلاح "قابيل" أخيه "هابيل" راعي الغنم لأن السماء أثرت رائحة الدم على طعم الجنى، وتركنا نغسل في دماء الأساطير ونغرق في بحور التأويل ونختصم حول النوايا والأفعال وكيف يتحقق العدل ويتم الحكم بالإنصاف.

لا تجزعي إذا خسرت قضية، فالانتصارات ليست فقط بالخواتيم، بل تكون أحياناً في نقطة الصدام بين من يمارس إنسانيته النقية وبين ظالم في ثياب قاض. يكفيك أن تعود في المساء وتنامي في ليل من خمائل.

كوني مع شعبك في حقه ولا تكريه أحداً فسيرتي حيث يقودك قلبك وليكن دائماً عفاك مولاك وبوصلتك الثابتة.

ستمارسين مهنة تتعاطى مع فقه القوانين فتذكري أن صناع هذه القوانين هم أناس لا يحبونك لأنك لست مثلهم ومنهم وتذكري أن المحاكم امتلات بقضاة نشأوا في دفيئات مسممة وما كان يعرف بسلطة القانون ذهب وولى فالقمع ازداد والعنصرية رفعت رأسها وهوامش الدفاع عن حقوق المظلومين انكمشت بصورة مؤلمة.

ستدافعين عن الضعفاء في مجتمعك، لكن تذكري كيف تشظى هذا المجتمع وصارت شوارعه مسارح للخناجر المرعبدة ولبائعي السموم ولبعض تجار الدين وأصحاب العصي والمعاصي.

وتذكري كيف تسفك دماء الرياحين باسم الرجولة وشرف هزيل وموهوم يمارس سطوته في الظلمة مثل كل متجبر مأزوم.

فابقي يا قرة العين وأنت تمارسين مهنتك الجديدة كما أنت، ضحكة الصباح الراوية وتنفس الساقية والرقعة إذا تحركت والطبية إذا تكلمت. فأنت الدانة الفلسطينية الغالية.

الروح والفرح، وعلامةً للهزيمة مطبوعة على جبين سجانك وقامعك.

لقد اخترت يا نجمتنا الوادعة مهنة ستبقي واقفة على ذرى العواصف، لا تنامين إلا في دفاء الماقي وفي صلوات البسطاء القانعين، فاليوم أن تكوني محامية يعني أن تسيري على الأشواك في غابات تسودها قوانين الثعالب والمكر وفي ميادين صارت فيها المسدسات مشرعاً والجشع هياكل والدولار غاية الغايات والخوف أضفى ملجأً للقهوريين والضعفاء والعاجزين.

أقلقتني ثقتها بسيادة الخير، وإيمانها بأن السماء قد تمطر على

لم تسألني عندما اخترت وجهة طريقها، بل أذكر كيف جاءتني، بعد قبولها في جامعة حيفا كطالبة في كلية الحقوق، وسألتنني، برقة مطبوعة في روحها، إن كنت معترضاً على ما قررته واختارته؟

من أين لي هذا الحق وكيف أعترض وقد كنت "إمامها" منذ يوم ميلادها؟ قربتها إلى صدري وضممتها كأنها لم تزل لعيننا الأثيرة، وتمنيت لها السلامة والظفر وكثيراً من الصبر والقناعة.

الناس غضباً وتيهاً، لكنها ستبقى مأوى للملائكة والحق وحاضرة الأنبياء والقديسين، فخفت على قلبها الكبير وعلى ندى عينيها وهي التي عاشت رديحاً في القدس وسمعت قصص افتراس الليل لتناهد العذارى، وشاهدت حوافر الخيل تدوس على عزائم الشباب ومناديل بائعات العنب والخوخ والتفاح، في زمن ضاعت فيه الأرصقة والحصون وتعثرت البصيرة وساد القهر والقلّة.

حاولت أن أفهمها ما معنى أن يعيش اليمام في حضن أوكار الدواهي، لكنها أجابتنني بعقلها الناضج وبمنطقها السليم، وكانني نسيت أنها ولدت في "الجانب الصحيح" وكبرت مع من أدلوا على حواجز القمع، فكانت كلما تسمع زغرودة أم وهي تمسح الغبار عن كفي ابنها العائد بسلامة من طريق النحل وهو كامل الأعضاء والارادة، تنام كظليبة عاشقة لأنها مثلها لا تحب الوحوش والكواسر، وتؤثر معانقة الزنايق والرقص بين يدي الشجر.

سمعنا في الصباح أن نتائج الامتحان أعلنت فدخلت غرفتها، نظرت إليها وهي نائمة فتيقنت أن للملائكة أرواح، وأحسست بالفجر، رغم إخلاصه للشجر، قد تسلل خلسة من شباكها ليغفو في حضن القمر.

على وجهها، رغم عذوبته اللافتة، بدت علامات تعب وطيف دمعة حائرة وآثار لوجع.

أحست بوجودي فحاولت أن تفيق بكسل. كنت واقفاً أمامها كعمود من دهشة. تذكرت كيف مضت السنين كغفوة فلاح تحت عناقيد

اعتدت في الماضي توديع السنة إماً بمقالة أجمل فيها أبرز ما تركته "أسنانها" على أجسادنا من جراح كانت تبقى نازفة مع قدوم عام جديد، أو برسالة مخصصة مفتوحة كنت أطيها على أجنحة الريح آملاً أن تصل عنوانها المقصود ويكون لها وقع وتأثير مرجوآن وملموسان.

أما في هذا العام فستسمح القراء عذراً لأنني سأشذ عن مألوفي وأبعث رسالة مفتوحة عن وإلى "دانة"، الصغيرة بين أولادي الثلاثة، وهي تتأهب، بثقة أرزة، لرحلتها نحو قمة الحلم وذلك بعد اجتيازها، قبل أيام قليلة، امتحان نقابة المحامين وعزمها كحامية واعدة على المضي في مسيرة الفراش لمواجهة "المهمة المستحيلة" وهي مزنة بسيف مزروع في غمد من بقايا رعد الأساطير التي كانت تنتصر فيها آلهة الخير والطيبة على الشر والخبث.

قريباً ستلبس العباة السوداء وتندق أبواب العيث وهي ترفع في يمينها قسماً لنصرة المساكين والمحتاجين، وفي يسارها شعلة من نور العدل "العذري" الذي سيكون، هكذا تؤمن دانة، له الغلبة على الأشرار وقساة القلوب وحلفاء الشيطان.

لم تسألني عندما اخترت وجهة طريقها، بل أذكر كيف جاءتنني، بعد قبولها في جامعة حيفا كطالبة في كلية الحقوق، وسألتنني، برقة مطبوعة في روحها، إن كنت معترضاً على ما قررته واختارته؟

من أين لي هذا الحق وكيف أعترض وقد كنت "إمامها" منذ يوم ميلادها؟ قربتها إلى صدري وضممتها كأنها لم تزل لعيننا الأثيرة، وتمنيت لها السلامة والظفر وكثيراً من الصبر والقناعة.

حاولت ببعض فضلات من حكمة تجربتي أن أهيئها كيف ستكون أفراحها "الكبرى" ليس إلا انتصار الجرح على السكين، وأوضحته لها معنى أن تكون حراً في وطنك المحتل حتى وإن كنت السجين، وكيف يصير القهر في حلقك أو القيد في معصميك مفاتيح لفيض

ستدافعين عن الضعفاء في مجتمعك، لكن تذكري كيف تشظى هذا المجتمع وصارت شوارعه مسارح للخناجر المرعبدة ولبائعي السموم ولبعض تجار الدين وأصحاب العصي والمعاصي.

وتذكري كيف تسفك دماء الرياحين باسم الرجولة وشرف هزيل وموهوم يمارس سطوته في الظلمة مثل كل متجبر مأزوم.

فابقي يا قرة العين وأنت تمارسين مهنتك الجديدة كما أنت، ضحكة الصباح الراوية وتنفس الساقية والرقعة إذا تحركت والطبية إذا تكلمت. فأنت الدانة الفلسطينية الغالية.

رئيس التحرير: زكريا حسن
zakariahasan22@gmail.com

المقال المنشور تعبير عن آراء أصحابها ولا تعبر بالضرورة عن رأي الصحيفة. المواد المرسله لا ترد الى اصحابها سواء نشرت أم لم تنشر. - الاعلانات على مسؤولية المعلن

المحرر المسؤول:
وليد صالح حسن

alwan@barak.net.il

الناصرة، ص. ب 50198 ميكود 16000
هاتف: 04-6562513 فاكس: 04-6562512
قسم الاعلانات: hades.adv@gmail.com

www.hades.co.il

حديث الناس

تصدر عن شركة حديث الناس م.ص